الفصل التاسع

«أبواب القدس»

فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب.
تقف أرجلنا في أبوابك يا أورشليم.

المزامير: 122

كان النصر على القوات المتحدة للإسلام عند أسوار مدينة أنطاكية حاسماً، ولكن الاحتفالات التي تلت عطلها حادثتان: موت أسقف لي بوي ونشوب شجار عنيف بين بوهمند وريموند أوف تولوز حول سيادة المدينة المفتوحة، ولم يكن هذين الأمرين غير مرتبطين لأن أدهمر لي بوي كان الرجل الوحيد في المعسكر المسيحي الذي لقي إعجاب وحب الجميع، فقد استطاع دوما الترفع على الشجار وأسباب الخلافات الحزبية التي هددت على نحو متكرر بتمزيق وحدة الصليبيين الهشة، وبحكم كونه الممثل الرسمي للبابا، كانت سلطته واسعة، فإنه عندما مات لم يكن هناك رجل يأخذ مكانه: أي لم يكن هناك ثمة شخص يتوسط بين الأمراء المتعطشين للسلطة، أو لضبط عدائهم العنيف فلو أنه كان حياً فلابد أن الأمور كانت مختلفة، ولربما أن الادعاءات الأصلية للامبراطور البيزنطي للسيادة على أنطاكية التي أقسم جميع القادة الصليبيين على احترامها كانت قد ذكرت، ولربما أيضاً كانت هناك حالة توافق بين الطرفين قد بقيت مصونة، أما في غيابه، فلم يلق أحدهم انتباهاً لألكسيوس أو لعهود ولائهم له باستثناء ريموند أوف لوز الذي كان غاضباً كثيراً عندما شرع بوهمند في تأسيس ما كان يعتبره حقه في المدينة، بينما التزم

بقية الأمراء الكبار الحياد، وهكذا ظهر الحقد والشجار وازداد، وكانت هذه العقبة المخيفة تشاهد غالباً خلال التاريخ الطويل للممالك الصليبية فيما وراء البحار، كما أصبحت تسمى الأراضي المفتوحة من قبل المسيحيين وبذلك بدأ تاريخهم.

وانعكست المنافسة بين بوهمند وريموند في كراهية مشتركة للنورمانديين والفرنسيين الجنوبيين، ونما ذلك مع مرور الأشهر ولم تقم أية محاولة للضغط لإعادة الهدف الأصلي للحملة الصليبية، ونعني القدس، لأن القادة كانوا منهمكين في المشاحنة من أجل مصير مدينة أنطاكية، وحدث أثناء ذلك حادثة نموذجية من حوادث الصراع بين أمراء الفرنجة.

فقد استولى رجال ريموند على معرة النعمان وهي مدينة هامة في شمال سورية وذلك بعد حصار قصير باهظ الثمن، وما أن انضم إليهم رجال بوهموند السريع المخادع، الذين لم يكن لهم دور مذكور في الاستيلاء عليها حتى شرعوا بنهبها قبل أن يدرك رجال منطقة بروفانس أتباع ريموند ما كان يحدث، ونتيجة لذلك، أصبح البغض بين القائدين ورجالهما مراً وصعباً، ووصل ذلك غايته حتى باتوا لا يتكلمون إلى بعضهم البعض إلّا نادراً. وأخيراً اضطر بعض الأمراء الذين وقفوا على الحياد في النزاع القائم بين الحزبين ـ إلى الكتابة إلى البابا أوربان يرجونه أن يقدم ويتولى بنفسه زمام القيادة في الحملة، ولكنه لم يكن مستعداً لمغادرة روما، وبدلاً من ذلك أرسل رئيس الأساقفة في مدينة بيزا وكان يدعى دايمبرت لينوب عنه، وقد كان اصطفاؤه سيئاً، فعندما وصل أخيراً انقلب ليصبح نكبة تامة تقريباً، ولكن الأحداث لم تنتظر وصوله: فقد اشمأز جمهور عناصر الجيش كثيراً من خداع قادتهم المستمر إلى درجة قرروا فيها التدخل أخيراً، وعند حلول عيد الميلاد سنة 1098، طالب جميع الرجال برؤية ريموند، وعرضوا عليه اعترافهم به قائداً أعلى إذا قادهم إلى القدس، وأدرس ريموند أن موافقته تعني تخليه عن أنطاكية لبوهموند، مع هذا اضطر لصيانة سمعته بالموافقة وقاد في يوم 13 كانون الثاني سنة 1099 جيشاً صغيراً

هزيلاً نحو الجنوب على الطريق إلى المدينة المقدسة، ولم يكن هذا الجيش يتجاوز أكثر من ثلاثين ألف رجل نصفهم تقريباً محاربين، وكوسيلة لتذكير إخوانه الأمراء بعهودهم المسيحية الأصلية بعدما رفض العديد منهم مرافقته، سار حافي القدمين على رأس رجاله في لباس الحجاج.

وسارت الأمور في أول الأمر بشكل حسن، فقد استقبل السكان المحليون الذين كانوا يكرهون الأتراك، ريموند ورجاله كمحررين،[1] وقدموا كل مساعدة لهم في الطريق، وربما كانت تلك النزعة الخيرية بسبب ـ على الأقل جزئياً ـ حقيقة سماعهم أخباراً مرعبة عن الصليبيين، ولكونهم متحمسين جداً لعدم تعرضهم لهم، وفي حين كانت بعض المدن الساحلية لا تزال تحكمها حاميات تركية فقد تعين على ريموند إلقاء الحصار عليها. وبالفعل استولى على موانئ مرقية وطرطوس دون مشقة كبيرة وأقنعت هذه النجاحات المبكرة غودفري أوف بوليون وروبرت أوف فلاندرز بتقليد روبرت أوف نورماندي وتانكرد اللذين سبق وانضما إليه، وتضاعفت قوة جيشه تقريباً بانضمام هذه الامدادات الجديدة، لكن رغم هذه الإمدادات أخفق في الاستيلاء على مدينة عرقة قرب طرابلس، ولما أصبح الصليبيون ضجرين ومثبطي الهمة عند أسوار المدينة، انفجرت الخلافات مرة أخرى بين أبناء منطقة بروفانس والنورمانديين، في حين كان الأمراء النورمانديون غير راضين عن سلوك ريموند بشأن الحصار، ورغبوا في التخلي عنه. وعندئذ تدخل بطرس بارثلميو مرة أخرى، فمنذ سقوط أنطاكية كان ينقل أخباراً عن مقابلات مع القديس أندرو وقديسين آخرين ألقوا إليه بأوامر على نحو متعدد ومتلائم بنقل رسائل مؤيدة له أو لرئيسه ريموند، وأصبح العديد من الناس متشككين بادعاءاته عن خبراته الغيبية، واعتبروه أحد أحلاف ريموند السياسية في صراعه ضد النورمنديين، كما بدأ بعضهم يشك في صحة المدية المقدسة، وعندما

(1) ليس بين المؤرخين العرب وغير العرب من لاتين واغريق وسريان من أورد هذا.

ادعى بطرس أنه قد تلقى أيضاً وحياً آخر من القديس أندرو، وكان يسانده في هذه المرة القديس بطرس والمسيح نفسه ـ بحيث حض الصليبيين على إطاعة أوامر ريموند واتباع نصيحته حول حصار عرقة ـ عندها وصلت الشكوكية مستويات جديدة واتهم بطرس علناً بالاحتيال.

وطالب بطرس وهو غاضب بشدة، بحق الدفاع عن نفسه ضد متهميه في اختبار بالنار، وسلم بالأمر، وفي يوم الجمعة الحزينة بدأت الطقوس، فرتب رتلين من الأخشاب مثل سورين بينهما ممر ضيق، وبعد تلاوة الصلوات من قبل الأسقف أضرمت النار في الأخشاب، وانتشرت أخبار المحنة في أرجاء المعسكر المسيحي، واجتمع الجيش جملة ليشهد النتيجة، وكان بطرس مرتدياً رداءه الكتاني، وماسكاً في يده المدية المقدسة، فهو مؤمن بنبرته القادمة، وتقدم بعد ركوعه لمدة دقيقة وتصليب نفسه، إلى النار دون علامة خوف، وكانت الحرارة شديدة إلى درجة أن طيران طائر فوق النار كان مستحيلاً لأنه سيسقط فيها ويفنى، ومع ذلك، لم يتردد بطرس لحظة واحدة، فقد نهض من ركوعه وركض خلال ألسنة اللهب، وتوقف لدقيقة في نقطة منتصف الطريق ثم ظهر من النهاية الأخرى، حيث سقط إلى الأرض محترقاً على نحو بائس، ثم مات بعد أيام، ولم يصدقه أو مديته التي كشفها أحد على الإطلاق، عدا أبناء بروفانس الذين أقسموا أنه دفع بعد خروجه ثانية إلى داخل السنة النار من قبل أناس كانوا يتوقون للمس حافة ردائه الاعجازي.

وبعد موت بطرس تخلى ريموند على مضض عن حصار عرقه وقاد الجيش جنوباً مع الطريق الساحلية، وسارع حاكم طرابلس لتأكيد صداقته للمسيحيين مزوداً إياهم بالأموال والخيول والمؤن والمرشدين، كما برهن مواطنو بيروت أنهم متحمسون ليرضوه، وتتابعت المدن الكبيرة على الساحل المتوسطي الواحدة بعد الأخرى ـ مثل صيدا وصور وحيفا ويافا ـ بمد يد الصداقة للصليبيين، أو السقوط بأيديهم بعد قتال، أو تركت خلفهم في عزلة قاتلة، وكان الفاطميون حكام مصر الذين كانوا أسياداً اسمين لذلك الجزء من

البلاد ـ غير محبوبين من قبل السكان المحليين تماماً مثل الأتراك في أقصى الشمال، ولم تحدث أية مشكلات إلّا من قبل قليلين منهم بالنسبة لريموند، أما سكان منطقة الرملة فقد لاذوا بالفرار، ونصب أسقف لاتيني هناك، وعين أمير للمدينة أيضاً، وفي أوائل حزيران دخل تانكرد بيت لحم، ورفع لواءه فوق كنيسة المهد وصعد الجيش في اليوم التالي التلة التي سموها فيما بعد «جبل الغبطة»، ومنها أمكنهم رؤية القدس، وكان قد مضت ثلاث سنوات منذ أن غادر غودوي أوف بوليون سهل اللورين، ولكنه والصليبيين الذين بقوا على قيد الحياة خلال نكبات الرحلة ـ وصلوا أخيراً، وكانوا جائعين ومتعبين كثيراً، وألبستهم رثة، وسرعان ما برهنوا مرة أخرى أنهم برابرة ومجرمون، ولكنهم عندما نظروا عبر الوادي الذي يفصلهم عن أقدس المدن في العالم بأسواره الحجرية الملونة بلون العسل وبسقوفها المتجمعة مع بعضها بعضاً، وبقية صخرتها المتألقة التي بدت لهم قبة لهيكل سليمان، الذي اعتقد العديد منهم بوجوده ومهما يكن الأمر لم يوجد بينهم واحد لم تهتز مشاعره واخلاص إلى حد البكاء الانفعال والفرح بهذا المشهد، ذلك أنهم أيقنوا أن الرب لم يتخل عن شعبه.

ولكن لو قادهم الرب إلى أبواب القدس لبقيت تلك الأبواب مغلقة في وجههم ولما كان لديهم مفتاح ديني يفتحونها به، ذلك أن القدس كانت دائماً مدينة محصنة على نحو هائل، كما كانت الأسوار التي تجابه الصليبيين رهيبة أيضاً، بناها أولاً هادريان فكانت تقوى وتجدد بشكل عصري مع كل جهاز جديد من المهندسين العسكريين عند البيزنطيين والأمويين والفاطميين، وكما نعرف اليوم فإن أسوار المدينة القديمة بنيت في وقت متأخر من قبل السلطان العثماني، سليمان الفاخر وعلى الأرجح أن العثمانيين اتبعوا نفس الخط الذي اتبعه الصليبيون في زمانهم، ولابد أن المدينة التي حاصروها بدت إلى حد كبير مثل المدينة القديمة المقدسة هذه الأيام، وقد كان الحاكم الفاطمي في المكان قد حذر مسبقاً من قدومهم، واتخذ جميع الاحتياطات الممكنة لجعل المدينة

منيعة، ورحل المسيحيين لئلا يبرهنوا على أنهم غير أهل للثقة، وعمد إلى تخزين مستودعات هائلة من الطعام والماء، وعمد إلى تلويث الآبار خارج المدينة، وبذلك دمر موارد الماء لأعدائه، وجلب قطعان الماشية والحيوانات من الريف المجاور إلى داخل المدينة ليمد حاميته من المصريين والسودانيين بالغذاء، في حين يتصور الصليبيون جوعاً، وأخيراً أرسل رسلاً إلى مصر يدعو خليفتها لنجدته، ولحاجته الملحة إلى إرسال جيش للتفريج عن المدينة.

ورغم خوف قادة الصليبيين المبهم من الهجوم على مكان محصن دون اللجوء إلى أسلحة الحصار المناسبة، فإنهم شجعوا بالقيام بذلك من قبل ناسك مسيحي كان يعيش في مكان قرب جبل الزيتون، فقد نصحهم هذا الرجل بمهاجمة المدينة مباشرة، مسلحين بالإيمان المطبق بالرب، وأكد لهم أنهم المنتصرون، وصدقوه. وفي اليوم التالي هاجموا أسوار المدينة عند الجانب الشمالي منها هجوما بين أنها غير منيعة، واجتازوا دفاعاتها الخارجية في فترة قصيرة مذهلة، ولكنهم توقفوا هناك تحت وابل الأسهم والحجارة التي كان يقذفها المدافعون من فوق السور الداخلي من المدينة، وبرهن إيمانهم غير المدعوم بسلالم التسلق ـ أنه غير كاف لتقدم الصليبين أكثر من ذلك، ورغم قتالهم لفترة ثلاث ساعات خضعوا للمحتوم وتقهقروا إلى الوراء حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم.

كانت خيبة مريرة. واستسلم الجيش لليأس، ولما أخفقوا في اجتياح المدينة لم يكن لديهم بديل آخر غير حصارها حتى يتمكنوا بطريقة ما من إيجاد لوازم بناء أسلحة مناسبة يجددون بواسطتها هجومهم، ولم يكن لديهم أية فكرة أين يمكن أن يجدوا مثل تلك الأدوات، وابتهجوا كثيراً بوصول أسطول انكليزي جنوب ميناء يافا حاملاً معه المؤن وبعض المعدات الحربية، إنما لا يكفي لمساعدتهم على التغلب على بعض الصعوبات لفترة قصيرة، فلقد كانوا بحاجة إلى أخشاب ثقيلة لبناء أبراج هجوم متحركة يمكن جرها إلى الأسوار، ومن أجل ذلك أرسلت حملات مختلفة في أنحاء البلاد للبحث عنها، ولكن

الأشجار كانت نادرة إلى حد كبير وتمكن أخيراً بعض الصليبيين من الوصول إلى تلال وفيرة الأشجار حول مدينة نابلس على مسافة خمسين ميلاً شمال القدس حيث وجدوا ما أرادوا، ومع ذلك بقيت مسألة كيفية نقل كميات الخشب الثقيل فوق الطرق الوعرة لمناطق «الضفة الغربية»، وحلت الأزمة أخيراً باستخدام الأسرى المسلمين والحيوانات المخزونة لديهم لجر الأخشاب بمشقة خلال الطرق الترابية.

وعندما بدأ العمل في بناء برجي انقضاض كبيرين وعدد كبير من السلالم، تغير الطقس وأصبح حاراً كثيراً، فقد كان شهر أيار وحزيران رديئي السمعة في شرق البحر المتوسط بسبب هبوب رياح ساخنة من صحارى شمال أفريقيا حاملة معها حرارة لا تطاق تجعل الحياة غير محتملة بالنسبة للإنسان والحيوان، وقد عرفت عند العرب برياح الخماسين، ويشبه هبوبها نفحة هواء ساخن من مجفف كهربائي، وتأثر الصليبيون الذين لم يخبروا مثلها بحيث اختنقوا أو التفحوا أو خبلوا منها، كما أثارتهم الزوابع التي غطتهم بالاتربة، وملات أنوفهم وآذانهم، ودخلت إلى عيونهم وشعورهم لدى نومهم، أما طعامهم فقد كسته طبقة ناعمة من الرمال كانت تصر بين أسنانهم، بينما أصفر الماء، وأصبح طعمه كالطين، لذا كان الرجال يشعرون بالعطش باستمرار، وسرعان ما بدأت الحيوانات بالموت بسبب تلك الكميات القليلة من الماء، وأرسلت مجموعات من الرجال لمسافات حتى نهر الأردن لجلب الماء، ولكنهم نادراً ما كانوا يعودون بما يكفي ليطفئ عطش الرجال، ولذا بدأ بعض الناس بالفرار بعد فترة وجيزة.

وتحت تلك الظروف، احتدمت الأمزجة وبدأت المهاترات حول سبب معاقبة الرب لشعبه مرة ثانية، وظن البعض أنه بسبب تعليق تانكر رايته الشخصية على سطح كنيسة المهد في بيت لحم في لحظة جهل تجديفي تقريباً، بينما اعتقد آخرون أن السبب تقديم العديد من الأمراء الصليبيين طموحاتهم أولاً على واجباتهم تجاه المسيحية، وفي الواقع، بقوا يتصرفون في نفس

الطريقة من البحث الذاتي، وتجادلوا حول من سيصبح ملك القدس عندما تسقط أخيراً، وكان رجال الدين عنيدين برأيهم، أنه ليس من شخص ينبغي أن يتخذ هذا اللقب، ولعل ثمة ملكاً واحداً للقدس، ولكنه مات على صليب، وهو الذي أعطى اسمه لهذه المملكة كما بين البابوات منذ ما يزيد على ألف سنة مضت ووافق معظم الشعب على رأي رجال الدين، كما خضع الأمراء الكبار للرأي العام، ولكن المناظرات لم تعدل الأمزجة كما كان الوقت صيفاً.

وفي أوائل تموز وصلت أخبار عن خروج جيش مصري كبير باتجاه الشمال للتفريج عن القدس، فبدأ الجميع يتساءلون عن كيفية صمود الصليبيين في وجهه بعد تقلص عددهم إلى حوالي خمسين ألف رجل بعد أن أنهكهم التجويع والمرض، وبدا لهم أنه بعدما صاروا من هدفهم قاب قوسين أو أدنى يكاد الرب أن يتخلى عنهم وينكر عليهم النصر، وقد جعل معنوياتهم تنخفض أكثر من أي وقت مضى، ولكنهم عاشوا في عالم كان غشاؤه الفاصل بين الزمن والأبدية، والرب والطبيعة دقيقاً، وعرضة للتمزق في أية لحظة، خاصة في ساعات الأزمات عندما يزيد القلق الواعي، ففي ليلة الخامس من تموز حدثت معجزة لراهب يدي بطرس ديسيدريوس حيث ظهر له أدهمر لي بوي الذي مات قبل بضعة شهور، وأخبره أنه لو تخلى الصليبيون عن أساليبهم الأنانية، وصاموا يوم الصيام وطافوا حول المدينة حفاة الأقدام ـ فإنهم سيستولون عليها في ظرف تسعة أيام، ودون تردد تقبل الجيش كله هذه الرؤى كحقيقة، وفرض الصيام على الفور. ثم في يوم الثامن من تموز سار الجميع في موكب فخم حول أسوار القدس، وقاد الأساقفة والكهان الموكب وتبعهم عن قرب الفرسان، وتعثر الصليبيون ونساؤهم حفاة الأقدام على نحو مؤلم فوق التلال الصخرية حول القدس، بينما احتشد المدافعون المسلمون في الدينة عند أبوابها ليشاهدوهم، وكانوا مسرورين كثيراً بغرائب أعدائهم المسيحيين، وحملوا فوق ظهورهم علامات الصليب للسخرية، في حين كان نساؤهم ترمي قطع الروث عليهم ويصرخن بكلمات السباب غير المعقولة،

ولكن الصليبيين تجاهلوهم، وعندما صعدوا جبل الزيتون قام بطرس الناسك والراهب ريموند والواعظ الشهير المسمى أرنولف أوف روهس بوعظ الجمع المحتشد الواحد بعد الآخر، وهكذا أصبح لدى الجميع الثقة أن المدينة ستكون لهم قريباً.

وخلال اليومين التاليين ساعد الجميع في إكمال بناء أبراج الحصار الخشبية الضخمة، وكانت ثلاثة تتدرج في الحجم، وسلحت أيضاً ضد النيران الاغريقية، التي كان يستخدمها المدافعون، وكانت هذه النار عبارة عن تركيب كيميائي من المواد شديدة الاشتعال، تشعل وتوجه ضد المهاجمين في آليات تشبه قاذفات اللهب الحديثة، وكانت الأبراج التي بنيت بعيداً عن نظر المسلمين الذين روعوا عندما شاهدوا فجأة تلك القلاع المتحركة الكبيرة المتوعدة تتدحرج ببطء وثبات نحو أسوار المدينة، وأصدر الحاكم العسكري أوامره إلى رجاله لتقوية الدفاعات عند نقط بدت مهددة، وعندما قام رجاله بالعمل على نحو مسعور لزيادة وتقوية السور، واصل آخرون قذفهم الثابت بالحجارة والنيران الإغريقية ضد أبراج الحصار، بينما هي تقترب، ولفترة قصيرة كانت معظم ذخيرتهم قد ضاعت هباء، لأن الصليبيين وأبراجهم كانوا خارج نطاق رميهم. وقبل أن يتمكنوا من دفع الأبراج لشن هجومهم، كان يتعين عليهم تدمير السور الخارجي وردم الخندق المحفور عند أقدام السور الرئيسي ومن ثم يمكن دفع الأبراج المتحركة مباشرة إلى أماكنها المخصصة في القتال، وكان هذا عملاً هائلاً، ولكن معظمه أنجز في ليلة 13 تموز، وخلال اليوم التالي، واصل الجانبان رمي قذائفهم الثقيلة، وتكبد المقاتلون عند أقدام السور كثيراً من الخسائر، وفي ليلة 14 تموز دفع أحد الأبراج إلى موضعه وحاول ريموند أوف تولوز شن هجوم من قمته، ولكن المدافعين قاتلوا ببسالة وشراسة بحيث لم يتمكن رجال ريموند من إحراز أي تقدم، وبدا أنهم في مأزق حرج.

لم ينم أحد في تلك الليلة، وكتب ريموند أوف أغيلرز فيما بعد. «كانت ليلة مرعبة بالنسبة للجانبين، فقد تخوف المسلمون من إمكانية إنقضاضنا على

المدينة خلال الظلام حيث أن سورهم الخارجي تحطم وردم الخندق أيضاً، وكنا من جانبنا متخوفين من إضرامهم النار في الأبراج التي كانت قريبة من السور الداخلي، ولذلك كانت ليلة مراقبة وعمل وعناية ساهرة،» وعندما بزغ الفجر في اليوم التالي 15 تموز، بدأت مهمة دفع ثاني أكبر برج نحو السور الشمالي، وكان غودفري أوف بليون وأخوه بورتاس أوف بولون في قيادة الطابق الأعلى، ولكن مقاومة المدافعين كانت شديدة، وعندما أصبح الصباح بدت كما لو أنها أشد قوة بالنسبة للمهاجمين. فأشار بعض فرسان غودفري عليه بالتخلي عن البرج والانسحاب، ولكنه ما كان ليفعل ذلك، ورغم أن الرجال كانوا يدفعون ببطء وألم، البناء الضخم قرب هدفه، ويتكبدون الخسائر أكثر وأكثر غير أنه لم يصدر أمره بالتراجع، لقد كانت الحجارة والنيران تمطرهم، وحرارة الشمس الحارقة لا تطاق إلى درجة أن بعض الرجال تجردوا من دروعهم في يأس قاتل، مفضلين الموت بسهم على أن تشويهم الحرارة حتى الموت، ولكنهم مثل غودفري لم يكن لديهم نية في التخلي عن القتال، وعند منتصف النهار قدموا البرج إلى مسافة ثلاثة أقدام من السور الداخلي، وعندها ابتهج الجيش المحاصر بشكل مفرط، وصرخ المسلمون متحدين لهم وأضرمت النار في أسهم مربوطة بقطن مشتعل في رف خشبي عند أعلى السور، الذي كان المدافعون يرشقون منه الحجارة على الصليبيين، وعندما امتدت النيران والدخان، أصيب المدافعون بفوضى سريعة، واغتنم غودفري فرصته، وأمر أحدهم أن يقطع الحبال التي تمسك الجسر المتحرك فسقط وتحطم على الشرفات المشتعلة، وعلى الفور انطلق فارسان فلمنكيان من مدينة تورناي عبر أعلى السور وتبعهما غودفري مع عصبة من الرجال المنتقين الذين كانوا ينتظرون، وعندما انتشروا واستولوا على قطاع صغير من السور رفع الرجال السلالم وتسلقوا إلى الأعلى للانضمام إليهم، بينما تسلق آخرون البرج وأسرعوا عبر الجسر لدعم فرقة غودفري المتقدمة، لقد اخترقت الدفاعات ولم يعد ثمة شيء ينقذ القدس.

وبينما كان غودفري ورجاله اللورنيين يعززون مواقعهم فوق السور قاد تانكرد فرقة من النورمانديين إلى داخل المدينة وفتحوا إحدى بوابات المدينة للجيش المنتظر، وعندها تدفق الصليبيون داخل الشوراع فتقهقر المدافعون المسلمون إلى منطقة الهيكل حيث قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك وهناك عمدوا إلى الصمود الأخير ضد الصليبيين الغزاة، ولكن تانكرد ورجاله ألقوا القبض على العديد منهم قبل أن يتمكنوا من متابعة المقاومة، فوعدهم بأرواحهم لقاء فدية ضخمة، وعندما وافقوا أعطاهم رايته لتعلق فوق الجامع بصفة أنهم أصبحوا تحت حمايته، وعلى أية حال، لم يؤد ذلك إلى فائدة، فما أن تغلغل الصليبيون داخل المدينة حتى عرضوهم لمذبحة دموية مرعبة هائلة، لقد عانى هؤلاء من الحرمان الكبير لمدة أشهر، ورأوا قادتهم يموتون من المرض والجوع والعطش، كما رأوهم يقتلون في المعارك، وبعد فوزهم بالنصر العظيم، وبعد الحرارة والخوف وسفك الدماء في اليومين أو الثلاثة الأخيرة، كانوا في حالة شعور مفرط هستيري تقريباً، وبعد ذلك لم يشكوا لحظة في أن المسلمين المدافعين عن القدس كانوا كارهين للرب ومدنسين للأماكن المقدسة، وعاملين لدى أعداء المسيح، وعابدين لشيء بغيض في مكان مهجور ذكر في الأنجيل، ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامين. وهم يرون أنهم كانوا ينفذون إرادة الرب[1]. ودامت المذبحة طوال ذلك اليوم، وقسماً من الليلة التالية، وعندما ذهب الراهب ريموند أوف أغيلرز لزيارة منطقة الهيكل في صباح اليوم التالي وجدها قفراء مليئة بالجثث، بحيث أن المسجد الأقصى وعلى سطحه يرفرف لواء تانكرد وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين، الذين وصلت دماؤهم لمستوى الركب، أما الأشخاص الناجون وحدهم من المدينة بأرواحهم فكانوا

---

(1) مهما بلغت حرارة المؤلف وبراعته الأدبية، ما من شيء يمكن أن يسوغ المذبحة التي اقترفها الصليبيون في القدس، وستبقى وصمة عار في تاريخ أوروبا ما دام هناك تاريخ وشعوب تقرأ التاريخ.

الحاكم وطائفة حرسه الذين سمح لهم ريموند بمغادرتها بعد دفع فدية ضخمة وتسليم خزائن هائلة، وذبح الباقون بما فيهم اليهود الذين حشدوا أولاً في معبدهم الرئيسي، ثم أضرمت النار في المبنى وهم أحياء، وعندما لم يبق من يقتلونه سار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي لا زالت مفروشة بالجثث وتفوح منها رائحة الموت ـ إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر إلى الرب لرحمته العظيمة المتنوعة، من أجل انتصار الصليب الذي فازوا بها باسمه.